الفصل التَّاسع

ماهيَّة النُّزوعيَّة

إذا نظرنا إلى شيء ما على أنَّه بدائيٌّ فهذا لا يقدِّم أيَّ معلومة جوهريَّة حول الموضوع، وفي هذا الصَّدد، فالبدائيَّة ليست سوى نظرية معلوماتيَّة؛ لنفترض أنَّنا تعاملنا مع شيئَيْن مختلفين - كالسَّببيَّة، وشيء آخر، مثلًا - على أنهما بدائيَّان، فالسؤال المطروح هنا: ما الفرق بين هذَيْن الشيئَيْن من جهة، والفرق بينهما وبين الأشياء البدائيَّة الأخرى من جهة أخرى؟

من المُجدي أنْ نقدِّم معلومات إضافيَّة حول طبيعة السَّببيَّة؛ لأنّه يتعيَّن على البدائيِّ أنْ يقدِّم نظريَّةً حول السَّببيَّة؛ وذلك بأنْ يُحدِّد عددًا من الأمور الجوهريَّة بخصوصها؛ لكي يميِّزها عن الظواهر الأخرى، وإنْ لم تكن معرَّفة تمامًا.

يعتقد النزوعيُّ - وهو من يؤمن بالنزوعيَّة - بأنَّ السَّببيَّة في الطبيعة نزوعيَّة في جوهرها، وأنَّ إنتاجها يتم بفعل القوى السَّببيَّة، لكنَّ هذه القوى لا يمكنها

الحدُّ من السَّببيَّة؛ فمفهوما: السبب، والقوة متقاربان جدًّا، ومفهوم القوة السَّببيَّة يحمل في طيَّاته إشارة إلى ذلك، ومن ثمَّ فهو ليس في موضع يساعدنا على إصدار تعريف غير دائريٍّ للسَّببيَّة. إذًا ، ما هي نظريَّة النزوعيِّ بخصوص السَّببيَّة؟

نظريةٌ مُحْكَمة

في استجابةٍ لنظريَّة الانتظام، ثمَّة فكرة أخَّاذة تشير إلى أنَّه لا ينبغي لما يحدث في أزمنة وأماكن أخرى أنْ يكون على صلة بعمليَّة سببيَّة معيَّنة؛ فعندما يُذيب الماءُ السُّكر، وتبثُّ الشمس الدفءَ في جُنبات الغرفة، وعندما يقع ضرر ما... إلخ، فالتفاصيل التي نحتاجها لمعاينة الحالة هي تلك التي سمَّيناها فقط، وقد تتضمَّن وجهة النظر هذه حالة سببيَّةً معيَّنةً بصرف النظر عمَّا إذا وجد انتظام أو لا، وتنبغي الإشارة هنا إلى أنَّ الانتظامات يجب أنْ يُنظَر إليها على أنّها حالات سببيَّة عدَّة مُفرَدة، أو مُجتمِعة مع بعضها.

تقوم النزوعيَّة على هذا الحدس الإفرادي؛ بمعنى أنَّ الأجسام المُفرَدة يمكن أنْ تحتوي ضِمْنًا على صفات نزوعيَّة خاصَّة بها، أو قوًى سببيَّة، وفق ما يُسمِّيها بعض العلماء، وتكون هذه القوى مسؤولة عن أي تأثيرات تحصل في هذه الأجسام.

وقد تكون الصِّفات النزوعيَّة غير بادية، ولا ظاهرة في الشيء؛ فعندما يكون لدينا جسم كروي نعدُّ هذه الخاصيَّة الكرويَّة ظاهرة على الدوام، وهذا ما نعنيه بقولنا (**ظاهر**)، لكنْ عندما يكون لدينا شيء هشٌّ، أو مرن، أو قابل للذوبان، فهذه صفات خفيَّة، وكامنة في هذا الشيء تجعله ينزع للتصرُّف بطريقة معيَّنة؛ فالجسم الهشُّ يملك قابليَّة للكسر على سبيل المثال.

غالبًا ما يشير النزوعيُّون إلى وجود العديد من الخصائص الأخرى لهذه الطبيعة؛ فإذا أخذنا خصائص الاستدارة، والشُّحنة، والكتلة مثلًا، وهي بعض الخصائص الأساسيَّة للجُسيْمات دون الذريَّة، فيمكن أنْ ندركَ أنَّ هذه الخصائص جميعها تشكِّل طبيعة الجُسيْمات التي تدفعها للقيام بسلوك معيَّن؛ فمن طبيعة الجُسيم ذي الشحنة السَّالبة الانجذاب إلى جُسيم ذي شحنة موجبة، والتنافر مع الجُسيْمات ذات الشحنة السَّالبة، إضافة إلى وجود مستويات للشحنة؛ بمعنى أنّه يمكن للجُسيم أنْ يتنافر أو يتجاذب بمستويات متفاوتة، ويمكن أنْ يكون للقوة السَّببيَّة الكلمة الفيْصل في النتيجة النهائيَّة، وهي نقطة غالبًا ما نتجاهلها عندما نُحجِّم مفهوم السَّببيَّة، فنتعامل معها على أساس أنَّها كلّ شيء أو لا شيء.

يعتقد بعض العلماء أنّ الخصائص جميعها هي طبائع جوهريَّة في الطبيعة، وتسمَّى وجهة النظر هذه **بالطبائعيَّة** (pandispositionalism): فإذا أخذنا جسمًا يمتلك خاصيَّة الكرويَّة مثلًا، نلاحظ أنَّ هذا الجسم سيميل للتصرُّف بطريقة معينة، كأنْ يتدحرج على المنحدر على سبيل المثال.

ليست الطبائعيَّة هي الصيغة الوحيدة للنزوعيَّة، فقد يعتقد بعض العلماء أنَّ بعض الخصائص لا كلها هي نزوعيَّة، أو ذات قوة سببيَّة، لكنْ ما يميِّز شخصًا ما بأنَّه نزوعيٌّ حقيقيٌّ هو اعتقاده أنَّ الخصائص النزوعيَّة هي حقيقة غير قابلة للاختزال، إضافة إلى أنَّ هذه الخصائص هي التي تحدِّد سلوك الأجسام التي تحملها؛ فيُفَسَّرُ سلوك شيء ما كتجلٍّ لإحدى نزوعاته، ويبدو هنا جليًّا ارتباط هذه الفكرة بالسَّببيَّة؛ فالسلوك الذي تسلكه هذه النزوعات يمثل في نهاية المطاف المُنتَج السَّببيَّ؛ لذلك يدعوها كثير من العلماء بالقوى السَّببيَّة، وهذا المصطلح يشير إلى الدور السَّببيِّ لهذه القوى.

إنّ الطبائعيَّة فكرةٌ قديمة، وربَّما تكون أول نظريَّة سببيَّة، وهي تعود إلى حقبة أرسطو ومن ثمَّ انتقلت على مرِّ العصور الوسطى عن طريق القدِّيس توما الأكويني (St Thomas Aquinas، 1225–74). وقد قدَّم لنا هيوم منحًى جديدًا في التعاطي مع السَّببيَّة، رافضًا وجهة النظر القائلة بوجود القوى السَّببيَّة لصالح نظريَّة سببيَّة قائمة على الانتظام.

استمر رفض التجريبيين لفكرة القوى السَّببيَّة حتى أصبح ذلك تقليدًا، ونجد ذلك عند الوضعيِّين المنطقيِّين من أمثال: جون ستيوارت، وراسل، وكوين، ولويس. لقد كان هؤلاء الفلاسفةُ متشككين بحقيقة القوى الطبيعيَّة الكامنة في السَّببيَّة، واستبعدوا هذه القوى من حساباتهم؛ فحوَّلوها إلى خصائص عرَضيَّة أو مطلقة، ما يعني أنَّها ليست نزوعيَّة، وبما أنَّ هذه الخصائص تفتقر إلى القوى السَّببيَّة، فلم يتمكَّنوا من تقديم قاعدة وجوديَّة للسَّببيَّة، محفِّزين المشروع التجريبيَّ على تحليل السَّببيَّة بمصطلحات أخرى.

شهدت العقود الأخيرة إقبالاً على مقاربة أرسطو الجديدة للسَّببيَّة، وهذا لم يكن بفضل الفلاسفة العظماء، بل لأنَّ فكرة النزوعيَّة هي الطريقة المُثلى لفهم السَّببيَّة سواء في العلم، أو في النظريَّات الميتافيزيقيَّة المعاصرة، فالنظرة الانتظاميَّة والميكانيكيَّة للعالم لا تقدِّم التفسير الأفضل لما نعرفه بخصوص السَّببيَّة علميًّا وميتافيزيقيًّا وفقًا لوجهات النظر الجديدة هذه.

معالجة تقنيَّة

تبدو الخصائص النزوعيَّة جوهريَّةً في العلم؛ فهي تساعد على تقديم التفسيرات والتوقعات، والتطبيقات التقنيَّة، إذْ يمكننا تفسير سلوك بعض الجُسيْمات، أو نوع معيَّن من الأشياء بعد اكتشافنا نزعاتها السُّلوكيَّة، فنستطيع أنْ نفهم لماذا يلتصق شيئان ببعضهما، وعندما نتعرَّف قوى التجاذب فيما

بينهما، نتوقّع الاحتمالات الممكنة للمسلكيّات، والتصرُّفات التي قد يقومان بها في ظروف جديدة.

في مُنشأة هندسيَّة هائلة كالجسر مثلًا، يجب على المهندس الإنشائيِّ أنْ يأخذ في الحُسْبان القوى السَّببيَّة للعناصر الرئيسة، مثل: العوارض، والمسامير، والركائز المتينة، وأسلاك التعليق، ويتعيَّن عليه أنْ يعرف بصورة دقيقة مقدار الوزن الذي يمكن لكل جزء أنْ يتحمَّله، وهذه خاصيَّة نزوعيَّة غير مرئيَّة. وعلى فرض أنَّ المهندسين قدَّروها بصورة صحيحة، فسيضعون بعد ذلك كلًّا من هذه الأجزاء في مكانها المناسب، ومن ثمَّ عليهم التحقق من قدرتها على تحمُّل هذه القوى.

يفسِّر النزوعيُّ الثورة المعرفيَّة أو التطبيقيَّة بأنّها إطلاق النزعات المخفيَّة، واستعمالها، والإفادة منها؛ فعلى سبيل المثال: عندما اكتُشف النفط الأسود اللزج لأوَّل مرَّة، لم يعرف أحد بأنَّه يحتوي على العديد من النزعات المختلفة التي يمكن الاستفادة منه وفقها؛ فهل عرف أجدادنا أنَّه قابل للاشتعال؟ أو أنَّه قابل للتكرير لإنتاج الوقود الذي نستعمله في تسيير وسائط النقل المختلفة؟ وهل عرفوا أنَّه بالإمكان الاستفادة منه في صناعة اللدائن؟ ربما توجد إمكانات محتملة أخرى لم نتعرَّفها بعد، أو ربَّما توجد إمكانيَّة للقيام بهذه الأمور باستعمال مصدر صديق للبيئة يمتاز بأنَّه أكثر نظافة، ويكون متوافرًا بكلفٍ زهيدة.

إنَّ الاكتشاف العلميَّ هو إيجاد الظروف الصَّحيحة لتحرير القوى السَّببيَّة، فمن كان يعلم أنَّ بكتيريا البنسلين يمكن أنْ تشكل علاجًا للعديد من الأمراض، أو أنه قد يوجد شيء بسيط، ومتوافر بكثرة وسيسهم في معالجة السرطان، وتمضي المحاولة قُدمًا يحرِّكها الشغف الجارف بمتعة الاكتشاف؛ فالعلم يتقدَّم من خلال اكتشاف قوًى جديدة للأشياء.

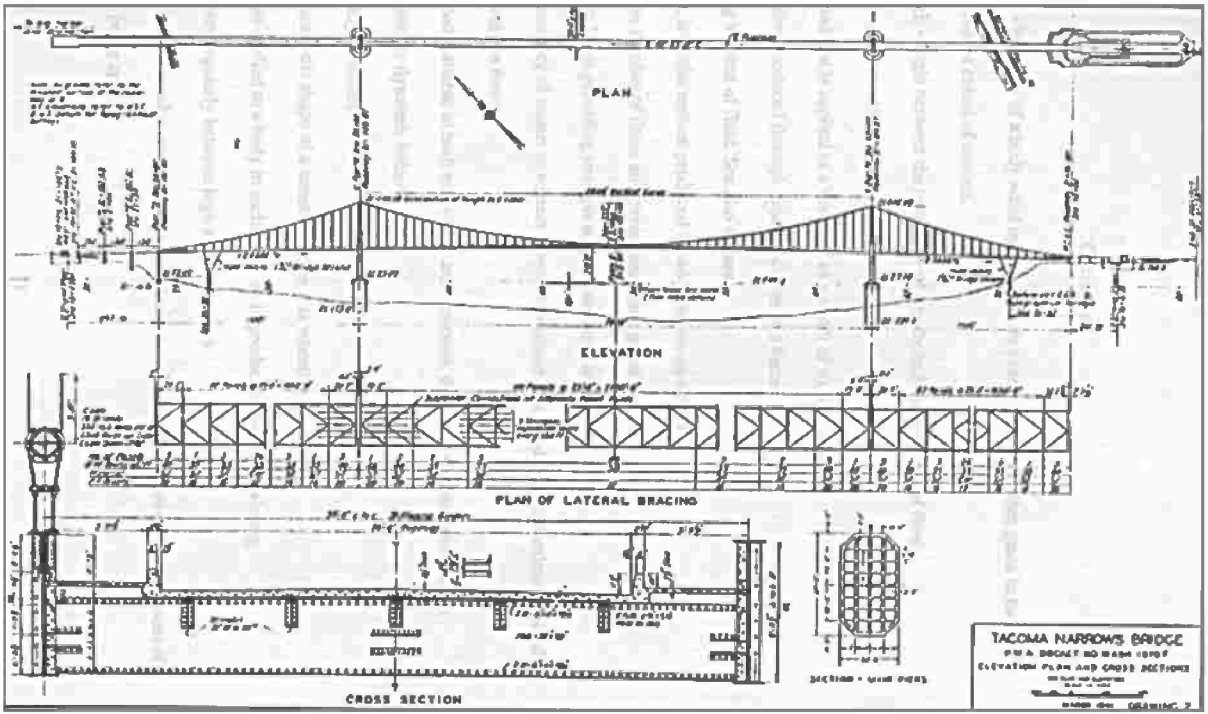

المهندسون يعرفون قدراتهم

افتراضات هيوم

إنَّ أحد الانتقادات الشائعة للنظرة الانتظاميَّة هو اعتقادنا غالبًا بوجوب إضافة شيء ما أكثر قوَّة للانتظام؛ ونعني بذلك اتصالاً سببيًّا حقيقيًّا يستبعد أنْ تكون الترابطات العرضيَّة حالات سببيَّة حقيقيَّة، وقد تُعزَّز هذه الفكرة بفكرة أخرى، وهي أنَّ السَّببيَّة يجب أن تكون ترابطًا مستمرًّا إضافة إلى مكوِّن آخر.

لكنْ يوجد اتجاهٌ فكريٌّ يمضي قدمًا في اتجاه مغاير، فعلى ما يبدو توجد حالات عديدة نعتقد بوجود اتصال سببيٍّ فيها -ولا نشكُّ في ذلك- مع أنّه لا يوجد ترابط مستمرٌّ فيها؛ فعلى سبيل المثال: مع أنَّ كلَّ شخص يعتقد بوجود سببيَّة بين التدخين ومرض السَّرطان، فلا يُصاب كلُّ مدخِّن بالسِّرطان.

إذا اعتُمِدَ الترابط المستمرُّ شرطًا ضروريًّا لإنشاء اتصال سببيٍّ، فسيعطينا ذلك نتيجة غير صحيحة، وعندها يمكننا تسمية ذلك بمُغالطة ثبات السَّببيَّة؛ فعلى سبيل المثال: إذا كنتَ تعرف عجوزًا يدخِّن طوال حياته دون أنْ يُصاب بالسَّرطان، فسيكون من غير الصَّواب أنْ تعتقد أنَّ التدخين لا يُسبِّب السرطان، وفي ضوء ذلك، ما الذي تحقِّقه السَّببيَّة إنْ لم تكن بحاجة إلى انتظامٍ دائمٍ؟

مراجعة ضروريَّة

تبدو الضرورة عنصرًا قويًّا جدًّا بالنسبة إلى السَّببيَّة، فهي ممكنة، وقابلة للتصوُّر على ما يبدو، وقد يُعاقُ أيُّ سبب بإضافة عامل إضافي، حيث تتقاطع العوامل السَّببيَّة مع بعضها في عالمنا الفوضوي، وتُبعِد عن طريقها ما يمكن أنْ يحدث خلاف ذلك، لنجد هنا المنع والتدخل.

وقد وظّفت هذه الفكرة في النقاش بخصوص السَّبب والنتيجة عندما لا تستلزم الأسباب آثارها، وقد كانت حُجَّةً استعملها هيوم نفسه في محاربة فكرة

القـوى السَّـببيَّة، لكننا نـرى أنَّ هذه الحُجَّة تسـتبعد القوى السَّـببيَّة تلقائيًّا الآن، فهذه القوى ستعمل فقط إذا أنتجت النزعات آثارها من خلال وجوبها، وقد فكَّر إسـبينوزا بهـذه الطريقـة، هذا العـالم الذي قد يكـون هدفًا لهيـوم في مراجعاته لفكرة السَّـببيَّة، ومن نافلة القول الإشـارة إلى أنَّ أرسطو وتوما الأكويني قد فكَّرا بطريقة مختلفة؛ فقد قالا بميل القوة فقط إلى الظهور.

المشـكلة هي أنَّ هيوم قـدم لنا خيارَيْن محدَّدَيْن: إمَّا الضَّـرورة المطلقة، وإمَّا نظرته القائمة على الاحتمال المحض، وكان من السَّهل عليه أن يقول: إنَّ الضَّرورة غـير معقولة في العمليات السَّـببيَّة الطبيعيَّة، وقد تكـون جميعها خاضعة للتدخل، لكـن رفض هذه النظـرة لا يعني أنَّ الأحداث كلها مُسـتقلة ومنفصلـة كما يعتقد هيوم، وأنَّه يمكن لأيِّ شيء من حيث المبدأ أنْ يتبع أيَّ شيء آخر.

الخيـار الثالـث الـذي لا يُقيم له هيوم وزْنًا هو ميول السَّـببيَّة، أو نزعتها تجاه آثارها، فلا شـكَّ بوجود ضرورة محدودة ولكن أكثر بكثير من الصُّدفة المحضة، ولا ينبغـي لنـا القول عن أيِّ نتيجـة ممكنة إنَّها محتملة الحدوث، وإنَّما يوجد ميْل واضح إلى نتيجة محددة على وجه الخصوص.

مـع الميـول وتدخلاتها المحتملـة، يمكننا رؤية كمِّ الأحـداث الهائلة التي ينبغي ألا تكـوِّن ترابطًـا مسـتمرًا بين الأسـباب والآثـار؛ فالتدخين يمكن أنْ يكون سـببًا للسـرطان، وذلك يعني بالنسـبة إلى النزوعي أنَّ قوَّة سـببيَّة حقيقيَّة تسـعى بهذا الاتجاه، لكنَّ هذه القوَّة هي ميل باتجاه السَّرطان فقط.

مـا ينطـوي عليه الأمر هو أنَّ عـددًا من المدخِّنين ظهر عندهـم ميل للإصابة بالسَّـرطان، لكـن يوجد آخرون يسـتفيدون من غياب العوامل التي سـاعدت على وقوع التأثير المُسَرْطِن، ووجود عوامل أخرى أعاقت هذا التأثير. من المعروف عن مرض السَّرطان أنّه من أكثر الظواهر السَّببيَّة تعقيدًا مع أنَّ الوقاية منه ممكنة،

وإمكانيّة التدخل الطبّي في كلّ مرحلة من مراحله قائمة، إضافة إلى أنَّ بعض الأشخاص قد يمتلكون ميلًا جينيًّا مقاومًا للسرطان.

توجد طريقة أخرى لفهم هذه النقطة، وهي أنْ نفكّر بالنزوعات على أنّها تسلسل عالي الحساسية، وقد تتنوَّع الظروف المحيطة بالقوَّة بعض الشيء، الأمر الذي يمكن أنْ يكون له تأثيرٌ كبيرٌ في الكيفيَّة التي تتجلَّى بها هذه القوَّة إنْ كانت ستظهر في الأساس؛ أما المثال الجيد على هذا، فهو الزجاج الهشُّ الذي قد يبقى سليمًا عند سقوطه، ولكن إذا غيَّرنا الظروف بعض الشيء فقد يتناثر إلى أجزاء كثيرة. وعليه، يمكن لتغيير بسيط في الظروف أنْ ينتج منه اختلاف كبير في النتيجة؛ فيمكن لعامل إضافي واحد أنْ يصنع الفرق بين أنْ يصاب المرء بالسَّرطان، أو لا.

الطَّبيعة والضَّرورة

قد يحاول النزوعيُّ عند بلوغ هذه النقطة أنْ يقلب مفهوم هيوم رأسًا على عقب. لقد أصرَّ على أنَّ الانتظام والترابط المستمرَّ ضروريان لفكرة السَّببيَّة، وكان القلق باديًا بأنَّنا ما زلنا بحاجة إلى شيء ما. يمكن للنزوعيِّ القول إنّنا لا نحتاج إلى الترابط المستمرِّ، وبالمقابل فالترابط المستمرُّ - الذي لا غنًى عنه - قد يُعدُّ مبرِّرًا للقول إنّنا لا نحتاج إلى السَّببيَّة.

هل تتحوَّل بعض الترابطات المستمِّرة الشهيرة إلى حالات من السَّبب والأثر؟ مثلًا، الحيتان جميعها هي من الثدييَّات، لكن هذا الأمر مجرَّد مسألة تصنيف؛ فنحن من وضعنا الحيتان في مجموعة، وصنَّفناها على أنّها من فصيلة الثدييَّات، أو أنَّ الطبيعة صنَّفتها في تلك المجموعة من أجلنا كما يقول أتباع التوجُّه الجوهريِّ (essentialist). يُعدُّ هذا انتظامًا لأنّها مسألة ضرورة؛ فلا يمكن لمخلوق ما أنْ يكون حوتًا دون أنْ يكون ثدييًّا، ولكن ألا يوضِّح هذا أيضًا أنَّ

هذه الحالة ليست سببيَّة؟ فكون الحوت حوتًا لا يتسبَّب في أن يكون ثدييًّا، الأمر ببساطة أنَّ الحيتان هي فرع من فصيلة الثدييَّات.

حالة أخرى للترابط المستمر لا تنطوي أيضًا على سببيَّة: يعتقد بعضهم بوجود متطابقات في الطبيعة، كتلك التي بين ملح الطعام، وكلور الصوديوم (NaCl)، أو بين متلازمة داون، ووجود كروموزوم (21) بصورة إضافيَّة. لدينا ترابط مستمرٌّ محُدَّد؛ لأنه لا يوجد لدينا شيء واحد يتسبَّب بآخر، ويحدث الترابط المستمر؛ لأنَّ لدينا حالة واحدة نتعامل معها باسمين مختلفين.

قد يستنتج النزوعيُّ بأنَّه يتعيَّن علينا ألا نتوقع انتظامًا صرفًا من العمليات السَّببيَّة الطبيعيَّة على الإطلاق، لكن عندما نجد ترابطًا مستمرًّا، أليس هذا سببًا وجيهًا لنعتقد أنَّ لدينا حالة سببيَّة؟ هل تُنتِج القوى آثارها؟ لا يمكننا أن نعدَّ هذا الأمر من المسلَّمات، هل تنشأ هذه الآثار بصورة عفويَّة؟ لا يبدو الأمر كذلك أيضًا؛ فالآثار تُنتَج فقط عندما تكون الظروف مناسبة؛ فالسُّكر قابل للذوبان، لكن لتظهر هذه القوَّة، نحتاج إلى وضعه في الماء الأمر الذي يُحرِّر هذه القوَّة، وعلى نحو مشابه يجب أنْ يسقط الزجاج الهشُّ، أو يُضْرَب قبل أنْ تتمكن قوَّة الهشاشة من القيام بعملها.

من الشائع الاعتقاد بوجوب تحفيز النزوعات، وعادة ما نتكلم عن شروط محفِّزة، ويمكن أنْ نفهم ظهور الحدث على أنّه استجابة؛ فمثلًا: الفحم مادَّة قابلة للاشتعال، لكن يجب إشعالها لكي تظهر قابليَّتها للاشتعال. وعليه، يُمكن فهم عملية الإشعال على أنَّها تحفيز يسمح لقابليَّة الاشتعال بأنْ تظهر، ومن ثمَّ يتبع ذلك عمليَّة الاحتراق. لقد ساد الاعتقاد زمنًا طويلًا بأنّه لا بدَّ من تفعيل التصرُّفات جميعها بتحفيز الظروف المتعلقة بها.

ولكن يعتقد بعض النزوعيِّين بوجود طرحٍ غير صحيح في هذا الشرح، ويفضل تشارلي مارتين بدلًا من ذلك التفكير بالتصرُّفات على أنّها تشكل مظاهر مشتركة؛ فهي تعمل بوصفها فريقًا واحدًا- أحيانًا على هيئة أزواج، وأحيانًا بوصفها مجموعة كبرى- لتُنتج مع بعضها ما لا يمكن أنْ ينتجه واحدٌ منها وحده.

بدلًا من التفكير بالذَّوبان على أنّه نزوع يُحفَّز بإضافة الماء، يجب أنْ نفكِّر بالسُّكر والماء بوصفهما شريكين في عملية الذوبان؛ لإنتاج المحلول ذي المذاق الحلو. تكمن مشكلة ما يُسمَّى بثنائيَّة التحفيز والاستجابة في قولنا: إنَّ النزوعات سلبيّةٌ في جوهرها ؛ أيْ إنّها غير قادرة على القيام بأيِّ شيء ما لم يأتِ شيء آخر، ويجعلها تعمل. لا يُفترض بهذه الفكرة أنْ تكون مثيرة لاهتمام النزوعي الذي يحاول تقديم نظرة أكثر فاعليَّة حول الطبيعة؛ فالنزوعيُّ هنا يمتاز بالسَّلبيَّة، ويكون منفعلًا عندما يكون التحفيز نشِطًا، ومن ثمَّ يبدو التحفيز أكثر قوَّة من النزوع نفسه، وهذه بالتأكيد فكرة ملتبسة.

إنَّ النموذج التشاركيَّ في إظهار الميول يجعل مجموعات القوى أكثر تكافؤًا، أو أقلَّ تكافؤًا مع الشركاء في السَّببيَّة، فهذه القوى جميعها تُضيف شيئًا ما، وتخضع للتغيير الحاصل نتيجة ذلك؛ فعندما يُذوَّب السُّكر في الماء يتعرَّض للتغيير، لكنَّ الماء يصبح حلو المذاق، ليبدو مرتبطًا بالسُّكَّر بهذه الطريقة. وعلى نحو مماثل، فإنَّ مكعب الجليد يذوب، لكنَّه يُبرِّد السَّائل أيضًا، وبذلك نحصل على تغيُّرات متبادلة في شركاء المظهر المتبادل عندما يبدأ سلوكهم معًا عمليَّة سببيَّة طبيعيَّة قد تأخذ وقتًا حتى تتطور، وربما تُقاطَع قبل اكتمالها، لكنَّها قادرة على إحداث تغيير في كلّ مرة.

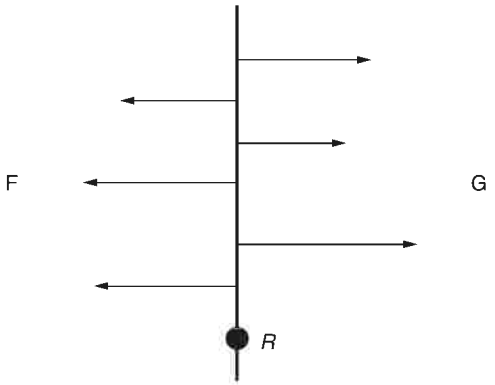

قوى في حالة من التوازن

يجب ألَّا يقتصر إنتاج القوى على التغيير، ويوجد احتمال آخر وهو أنْ تقوم هذه القوى بفعل معين دون إحداث تغيير يُذكر، ويمكن أنْ تنتج حالة توازن عن القوى التي تعمل باتجاهات مختلفة، كما في الشكل أعلاه (9ب)، لنجد أنَّ لدينا محصِّلة صفريَّة للقوى عند النقطة (R) ناتجة من الأشعة متعاكسة الاتجاه؛ ففي مثال الجسر المعلَّق، نحتاج إلى أنْ تتوازن القوى المؤثرة جميعها ليكون أثرها النهائيُّ ثبات الجسر. تشير بعض افتراضات السَّببيَّة إلى وجود علاقة بين الأحداث، كما الحال مع النظريَّات الهيوميَّة، فعندما يكون الأثر أنَّ شيئًا ما لم يحدث، فتكون لدينا هنا حالة (لا حدث). وغالبًا ما نسعى في الهندسة للوصول إلى استقرار المنشأة أكثر مما نريد حدوث تغييرات فيها.

هل يمكن أنْ نعدَّ غياب السّبب سببًا؟

تشير النزوعيَّة إلى أنَّ السَّببيَّة هي ممارسات القوى، أو النزوع الحقيقيُّ لهذه القوى، فهل يمكننا تطبيق هذه الفكرة في كل حالة؟

يوجد مثال معاكس يفترض أنْ تُحقق السَّببيَّة من خلال غيابها، فغياب الماء يقتل النباتات، وينتج من غياب الأكسجين اختناق الإنسان. إنَّ إحدى طرائق الحصول على الشيء تكون بمنع حدوثه؛ فالشخص الشِّرير يمكن أن يرى عدوَّه وهو يموت بمنعه شخصًا آخر من إعطائه جرعة العلاج لإنقاذ حياته، فهل يمكن أنْ نأخذ بالحُسْبان حالاتٍ كهذه فيما يتعلق بممارسات القوى؟

قد يقول قائل: إنَّ اللاشيء لا يمكن أنْ يكون قوَّةً مطلقًا، فهل يمكن لانعدام الماء أنْ يشكِّل قوَّةً تقتل النبات؟ هذا لا يبدو صحيحًا؛ فانعدام الماء شيء لا يذكر على الإطلاق، فكيف يمكن أنْ يكون ذلك قوَّةً سببيَّة؟ يوجد اختبار للتأكد من الحقيقة بهذا الخصوص يُدعى الاختبار الإيليائيَّ نسبة إلى الفلسفة الإيليَّة، أو الإيليائيَّة.

تقوم فكرة هذا الاختبار على التصوُّر الآتي: حتى يكون الشيء حقيقيًّا، فيجب أنْ يكون ذا قوة سببيَّة. إذا اعتمدنا هذا القول، وتبنَّينا هذه الفكرة بخصوص وجود قوَّة مؤثرة للشيء الغائب، فقد يكون علينا التعامل مع غياب الأشياء على أنَّها جزء من الواقع.

لكن توجد مقاربة من نوع آخر، فإذا منع الشرير حقن الجُرْعة التي ستنقذ حياة عدوِّه، عندئذٍ يقول النزوعيُّ: إنَّ المرض تسبَّب بالموت في حين أنَّ الدواء يمكن أنْ يُعدَّ علاجًا لهذا المريض، وقد تكون لدينا الآن حالة معاكسة إذا ما حُقِنت الجرعة؛ لأنَّها ستعمل على إنقاذ الشخص، ويمكن أنْ تكون هذه حالة مُغايرة لكنها أصبحت صحيحة من خلال القوَّة السَّببيَّة للدَّواء، لكنَّ هذا لا يُقدِّم سببًا للموت؛ فالسَّبب كان المرض، ولا مانع من أنْ نُحمِّل الشِّرير بعض المسؤوليَّة الأخلاقيَّة، أو القانونيَّة عن الموت ما لم يُوقِف ما يمنع ذلك، ووفقًا لتصوُّر النزوعيِّ، فإنَّ حالة منع مزدوجة كهذه ليست كافية لجعلها سببيَّة.

الاتِّجاه الصَّحيح

يمكن النظر إلى النزوعيَّة على أنَّها صيغة من البدائيَّة، وقد يحاول النزوعيُّون دعم فكرة إمكانيَّة الحصول على مفهوم السَّببيَّة من خلال أجسادنا بوصفنا وكلاء، ويمكن القول: إنَّنا سنختبر بعد ذلك الطبيعة النزوعيَّة للسَّببيَّة. غالبًا ما يشعر الوكلاء بمقاومة الأفعال؛ فهم يحاولون رفع آلة الغسيل مثلًا، لكنها ثقيلة عليهم، يمكنهم أنْ يشعروا بميل أفعالهم نحو رفعها، لكنهم يشعرون أيضًا أنَّ الفعل يمكن كبْحَه بسبب وزن آلة الغسيل.

لكن من غير المحتمل أنْ يقدِّم النزوعيُّون هذه الفكرة على أنَّها تحليل للسَّببيَّة؛ فالقوى تُنتِج تجليَّاتها، والإنتاج مصطلحٌ سببيٌّ مُسْبَق، وبذلك لا يمكننا استدعاء مفهوم النزوع لدحض السَّببيَّة؛ فالممارسات النزوعيَّة تبدو وكأنَّها تتضمَّن السَّببيَّة.

ومع ذلك، فالنزوعيَّة تقدِّم لنا نظريةً ما، فهي تشير إلى سمات مُحدَّدة للظاهرة، ويمكن أنْ تنطوي السَّببيَّة على فعل أجسام منفردة بما تقتضيه خصائصها النزوعيَّة؛ إنها تنطوي على غائيَّة تجاه نتيجة محدَّدة، وهذا يوضِّح لماذا لا يكون المُنتج السَّببيُّ نفسُه ضرورةً؟ ولماذا لا تكون السَّببيَّة ترابطًا مستمرًا؟

يمكن فهم النزوعيَّة أيضًا على أنَّها صيغة لنظريَّة الانتقال، لكن من غير اختزاليَّة؛ فبدلًا من القول: إنَّ الطاقة تُنقل، فإنَّ السَّببيَّة ستكون مرورًا للقوى؛ فالشيء الحارُّ لديه قوَّة الحرارة التي تمرُّ لتصل إلى الشيء، ثمّ تُسخِّنه. كما تُبيِّن النظرة النزوعيَّة سبب ميل السَّببيَّة إلى صناعة الفرق؛ فهي غالبًا ما تنتج تغيُّرات، مع أنَّنا لا نحتاجها دائمًا، لكن عندما تقوم السَّببيَّة بذلك، فهي ستنتج بصورة متكرِّرة تغيُّرات ما كانت لتحدث لولا ذلك.